رسالـــة الـــى اللـــه

النهار بقلم عقل العويط ألثلثاء ١١ آذار ٢٠٠٣

انظرني عينا بعين ولا تُشح وجهك عني. انا عين هابيل الرائية بعدما قتلني شقيقي قايين. لا تحدّياً اخاطبك انمـــا يأســاً. هل اسخر منك الآن يا الله، لأنك العجوز الضعيف المهزول. هل اجدّف لأنك الكسول النائم على مجدك المترهّل. هل ابحـث عن اله امين اخر لأنك خائن نفسك ومسلّم اتباعك في الارض. هل الطم وجهك كي تصدق اني لم اعد اؤمن؟ كنت تقـول وكنا نصدق. كنت تقول من يملك ايمان مثقال حبة الخردل يستطيع ان يقول لهذا الجبل انتقل فينتقل ويصير فـــي البحـــر. الآن اسألك لا ان تنقل الجبال وتسقطها في البحر، بل ان تصدَّ منافسيك والمتآمرين عليك وتمنعهم عنا.

لا نريد اعجوبة يا الله لاننا بتنا نعرف ان اعجوبتك لن تجد مكانا لها في الارض. لأن الشر، الشر الذي صنعتـــه بيديـك الاثنتين، قد تمرد عليك وصار الاقوى. شر العبقرية الكبرى هذا، هو الآن، اقوى منك يا الله. كان الشيطان اقوى، ولـــم يكن ثمة قوة في الارض تستطيع ان تتغلب على الاعجوبة. كنت تقول ان الاعجوبة تشفي المرضـــى. وتقيـم الموتـــى. وتصنع الشعر. وترسل قوس قزح في العاصفة. وتُشلّ يد المعتدي. تُيّبسها. تقطعها. شرط، فقط، ان نؤمن.

كنا نؤمن، يا الله، وكنت البرهان. لا نزال نؤمن، فأين هو برهانك الان، ولماذا لا يتحقق؟ لماذا لا تُشَل، الآن، يـــد هـــذا الشيطان الاكبر الذي يدعى الولايات المتحدة؟ اذا كنت الهاً حقّاً، فافعل ما تمليه عليك الـــهوتك، ولا تطلـــب شـــيئا فـــي المقابل. لماذا، يا الله – أكنا نؤمن بك ام لا – تتهرب من الوهتك؟ ولماذا صرت ضعيفا وجبانا ومخذولا؟ لماذا صـــرت الهارب والفار والمخبئ وجهك وعينيك امام ضحكة الشيطان القوية؟

لماذا، وانا اناديك وأُسَمّيك لتسمعني وتراني وتعرفني جيدا، لماذا صرت، يا الله، قاتلاً في ارض لبنان وفلسطين والعـــراق بعدما كنت يوما الهاً لحارقي الارض؟ لماذا لا تستقوي بجنودك الكثر الهائمين بك وبسببك فـــي بقـــاع الارض؟ لمـــاذا لا تحتمي بهم؟ حتى اولئك الذين مصالحهم غير مصالحك، وهمومهم غير همومك، لماذا حين يقفون في وجه الشر، لماذا لا تعضدهم وتقوّي عزائمهم؟

لماذا لا تمدّ يدك لترجِّف آلة الشرّ العظـــمى، هذه التي تُدعى واقعياً ورمزياً الولايات المتحدة؟ لماذا لا ترسل طوفـــانك لا لتخرّب بل لتوقف الخراب، ما دمت ارسلته في احد الايام الغابرة، وانقذت جنسك البشري، ومعه زوج مـــن كـــل صنـــف وحيوان، لماذا لا ترسله الآن كي تضع حدّاً لهذا الشر الذي استشرى، هذا الشر المقيم بيننا وذاك القادم الينـــا بضحكـــات الملائكة الاشرار؟ وما دمت اخاطبك باسمي، لماذا لا تمد يدك لترجِّف آلة الشر التي تبيد شعب فلسطين، وتلك التي تلغي شعب لبنان؟ الا يكفيك، يا الله، ان الشعوب بأسرها، الشعوب المتألمة، الرائية، الضعيفة، الحرة، القتيلة، المختلفة عـــن القطيع، ان هذه الشعوب ترفع اليك ايديها ضارعة مستغيثة، موقظة اياك من هربك الفظيع، من نومك الابدي، من وقوفك الصامت – اكاد اقول – الى جانب الشر؟

ما بالك لا تسمع، يا الله؟ ما بالك لا تستجيب شعب العراق، وهو نفسه شعب فلسطين وشعب لبنـــان وشـــعوب افريقيـــا وشعوب نواحي الظلم كلها؟ ما بالك لا تراه؟ ما بالك لا تتذكر ثلاثين عاما من الفظائع منذ رميته في الجب البعثـــي الـــى الآن؟ ما بالك لا ترى بعينيك الاثنتين، هاتين اللتين تريان الكون وما فيه وما فوقه وما تحت، ما بالك لا تـــرى الجحيـــم العراقية، جهنم البعث هذه، ولا ترى ايضا هذا الجزار الاميركي، وهو يشحذ سكاكينه – ليتها تكون سكاكين – ضاحكـــا، جائعا، ضحكة المجانين المرضى وجوعهم الابدي الى الفتك والقتل والدم والسيطرة والالغاء؟

ماذا دهاك ايها الله؟ الا تستطيع ان تُصوِّت في مجلس الامن؟ أليس تحت يديك هواتف حمراء تخاطب بها المترددين كي تقنعهم بالتصويت لك؟ أتكون ضد نفسك، ام تكون يا ترى قد ارتأيت ان الشر المقيم لا دواء له سوى هذا الشر الآتي؟ أليس لديك من ترسله الى هناك، الى مجلس الامن في الامم المتحدة، لتمنع وسواس المصالح والمخاوف والضغوط والتهديد والرعب من ان ينفث غيومه السوداء فوق التشيلي وانغولا والمكسيك لدفعها دفعاً الى التصويت للحرب السوداء؟ اكسر يا الله يد هذا الطاغوت، اخلعها خلعاً من الكوع كي ترتد عنا.

لا تنظر ما اذا اكنا نؤمن ام لا. افعل شيئا حسنا نتذكرك به، من اجل اطفال العراق، من اجل شيوخه وعجزته، من اجل فلاحيه ونبلائه، من اجل شعرائه وكتابه وفنانيه، من اجل اساطيره وطقوس التاريخ فيه، من اجل اوثانه وآلهته، من اجل مياهه، كي لا تصير مياها قاحلة. افعل شيئا حسنا كي لا تصير بيداء، ارض الرافدين تلك، على غرار بياديك في هذه الارض العربية المغمورة بالبعث وبكل بعث آخر وبكل الاسماء الاخرى: من ارض لبنان الى ارض الشام الى ارض الارض في فلسطين، الي ارض الرافدين، الى ارض وادي النيل، الى ارض المغرب العربي كله، الى ارض الخليج، وهي الصحراء ذات الشوك الابدي، المبلولة بالماء الاسود المقزز، ماء الموت الذي يشتاق اليه المستبد الاميركي، ويريده ويتمنى ان ينام فيه – يا ليت – ويحترق. اعطنا يدك، يدك القادرة تلك لا يدك الساكتة هذه، لنردّ بها كيد اعداء الحياة ونلوي اعناق ارواحهم الشريرة. اعطنا يدك لا لنقتل بها انما لننتشل شعب العراق – ومعه شعوب المظلومين كلها – من ايدي الطغاة كلهم، من مخالبهم، من اسنانهم الكاسرة، من اعينهم التي تلتهم وتحرق وتبيد. اعطنا لا ان نصير عبيدك بل ان نعود نؤمن. لا إله توراة نريدك بل إلهاً للحب. اعطنا بدون مقابل. اعطنا كي نظل نستطيع ان نتحداك وان لا نؤمن بك. اعطنا ان تظل تقبل كفرنا وان تظل تعطي. فأَرِنا الان، اعجوبتك هذه، لا لكي نؤمن، بل من اجل ان تكون. لا على طريقة توما، ولا من اجلنا، لكن من اجل ان تستحق ان تكون إلهاً من جديد.